وقد حدد الجاحظ المقصود بالعوام الذين يُنسب إليهم اللفظ العامي ، بأنهم الطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق غيرها من أهل الأمم الأجنبية ، ولكنهم لم يبلغوا منزلة الخاصة من العرب [١] . وإن كان قد التفت التفاتة مدهشة إلى ربط الصياغة بطبيعة متلقيها ، فلا مانع – عنده – من أن يحتوي الكلام على الوحشي من الألفاظ إذا كان ذلك موافقًا لطبيعة التوحُّش في المتلقي ، وبالمثل أيضًا يجوز استخدام العامي إذا كان المجالُ مجالَ تخاطب مع السُّوقَة . وكما يكون هناك احتياج للجَزْل في بعض المواضع ، كذلك يكون هناك احتياج لسخيف اللفظ في بعض المواضع أيضًا ، بل ربما كان ذلك أمتع من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ .

ومن هنا يوجب الجاحظ على المتكلِّم – إذا كان في مجال الحكاية – أن يورد النادِرَة من كلام الأعْراب كما هي في صياغتها ، دون تغيير لها بإخراجها مخارج كلام المولَّدين والبلديين ، وكذلك الأمر في رواية نادرة من نوادر العوام ومُلْحَة من مُلح الحشوة الطغام ، فلا يجوز أن يتخيَّر فيها لفظًا حسنًا ، أو مخرجًا سريا ؛ لأن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذي أريدت له [٢].

وقد مثَّل ابن سنان للكلمة العامية بقول أبي تمام :

جَلَّيْتَ وَالمَوْتُ مُبْدٍ حرَّ صَفْحَتِهِ وَقَدْ تَفَرْعَنَ في أفْعالِهِ الأَجَلُ

« فإن (تفرعن) مشتق من اسم فرعون ، وهو من ألفاظ العامة ، وعادتهم أن يقولوا : (تفرعن فلان) إذا وصفوه بالجبرية . » [٣]

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٣٧ . (٢) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٤٥–١٤٦ .
(٣) ابن سنان : سر الفصاحة ، ص ٦٣ .